

الصَّنمُ السُّكَّرِيّ

دار المعارف بمصر

حكايات صينية

مجموعة من الحكايات الشائقة اللطيفة التى تصور للناشئة العربية بلاد الصين وأخلاق أهليها وجوانب من معايشهم ومجتمعاتهم ونوادرهم ولطائفهم .

● صدر منها :

١ — النهر الأحمر	٥ — البطيخ اللؤلئى
٢ — القفاز السحرى	٦ — الثأر
٣ — جبل الكنوز السبعة	٧ — لوا الأحدب
٤ — الصنم السكرى	٨ — كنز الفضة

دار المعارف للطباعة والنشر والتوزيع

حكايات صينية

٤

الصَّنمُ السُّكَّرِىّ

للأساتذة

محمد أحمد برانق

حامد محمد سليمان

تان سومين

湯書民

دار المعارف بمصر

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ٥ شارع ماسبيرو – القاهرة

اَلصَّنَمُ السُّكَّرِىُّ

١

مُنذُ زَمان قديمٍ كانَ أَخَوانِ يَعِيشَانِ فى قَرْيَة ، وكانَ الأخُ الكبيرُ منهُما بَخيلاً قاسياً ، وكانتْ لهُ زَوْجةٌ لا تقلُّ عنهُ بُخْلاً وَقَسْوةً ، وكثيراً ما كَانَا يَخْدَعانِ الأخَ الصغيرَ ، ويُسيئانِ إليْه .

وَذَاتَ يومٍ طلبَ الأخُ الكبيرُ وزَوْجتهُ مِن الأخِ الصغيرِ أنْ يَحْمِلَ قِدْرَيْنِ مملوءَتيْن بِعَسَلِ النَّحْلِ ، ويَذْهبَ بهما إلى المدينةِ ليَبيعَهُما ، وكانَ عليْهِ أنْ يَعْبُرَ جبلاً عالياً شديد الانْحِدَار حتَّى يَصِلَ إلى المدينةِ ؛ وكانَ هذا الْجَبَلُ مملوءاً بأشْجارِ الشَّوْك والصُّخُور

النَّاتِئَة ؛ وكانَ من الصَّعبِ أنْ يَسيرَ الأنسانُ بمفْرَدِه فى هذا الجَبَلِ ، فكَيفَ إذا كانَ يحْمِلُ أكثرَ منْ مائةِ رِطْلٍ منَ العَسَلِ مَوْضوعة فى إناءَيْن .

كانت الرِّحْلةُ شاقَّةً جدًّا : فإنَّ الأشواكَ كثيرةٌ ، والصُّخُور النَّاتِئةَ مُبعْثرةٌ هُنا وهُناك ، وإنَّ الوَقْتَ صيفٌ ، والشَّمسَ مُحْرِقة . فالْتَهبتْ قدما الأخِ الصغير ، وتقرَّحتْ كتفاهُ . . . وكانَ مع ذلكَ يُجاهدُ فى سبيلِ الصُّعودِ فى الجبل ، ولكنَّهُ عجزَ أخيرًا عن المقاوَمَةِ وضَعُفتْ قُوَّتهُ ، وخانَتْهُ رِجْلاه ، فانزلَقَ وتَدَحْرجَ بحِمْلهِ إلى الوادى ، فأُغْمِىَ عليْه ، وانكسَرَت القِدْران وَسالَ العسلُ فغطَّى جَسَدُه كلَّه .

بعْدَ فتْرةٍ من الزَّمنِ كانَ قرْدٌ صغيرٌ يمُرُّ فى هذا المكانِ ، فأبْصرَ كُومَةً ذهبيَّةً تتلألأُ تحْتَ أشعَّةِ الشَّمس ، ولم يعْرف ما هذهِ الكومَة ، فأسْرَعَ يُخْبرُ ملكَ القرُودِ .

وجاءَ الملكُ ومعَهُ عددٌ كبيرٌ من القُرُودِ إلى الوادى ، وأحاطُوا بالأخِ الصغيرِ وظلُّوا مُدَّةً لا يجْرُءُون أنْ يلْمسُوه . وأخيرًا تشَجَّعَ مَلِكُ القُرُود ، واقْتربَ من الكُومَةِ الصَّفراءِ ومَدَّ رِجْله ليَلْمسها ، ولكنَّهُ أسْرَعَ فجذَبَها خائفًا . وفى هذهِ اللَّحظةِ عَلِقَ بقَدَمِهِ شىءٌ منَ العَسَل ، ودُونَ تفكيرٍ لَعقَ القِرْدُ رجْلَهُ ، فوَجدَ لها طعْمًا حُلْوًا ، ورائحةً ذَكِيَّة . . عِنْدَئذ أقبلَ القُرُود جميعًا يلْعقُونَ العسَلَ واحِدًا بعْدَ الآخر ، وسَرَّتْهُم حلاوَتُه كثيرًا ، فأخذُوا يَقفِزُونَ ويصيحُون ، ويَنُطُّون ويلْعبُون .

كانَ الأخُ الصغيرُ ما زالَ غائبًا عنِ الوعْى ، وكانَ وجْههُ المغْمُورُ بالعَسَل يَلمعُ تحْتَ أشعَّةِ الشَّمس ، ونظرَ ملكُ القُرُودِ إليْهِ لحظَةً وقال :

ما هذا ؟! إنَّهُ يبْدُو كإنسانٍ ، ولكنَّ جِسْمَ الإنسانِ

لا يمكنُ أنْ يكونَ حلوًا . . لا بدَّ أنهُ صنمٌ . . . صنمٌ سُكَّرىٌّ . . . !

عِنْدَما سمعَ القُرُودُ أنهُ صنمٌ سُكرىٌّ خرُّوا له ساجدين ... وأخيرًا قرَّرَ ملكُ القُرُودِ أن يحملوا الصنمَ السُّكرىَّ إلى كهفِهم ، وأجْلَسُوهُ عَلَى عرْشِ الملكِ .

وعِنْدَ مُنْتصفِ اللَّيْلِ أفاقَ الأخُ الصغيرُ ، وَفتحَ عينيْه ، فرأى نفْسَهُ جالسًا عَلَى مقعدٍ حَجَرىٍّ فى الكهْفِ ، والقُرُودُ منْ حَوْلِهِ نائمونَ ، فشعرَ بالخوْفِ الشَّديدِ ، ولكنْ ما إنْ وجدَ بقايَا العَسَلِ عَلَى جسدهِ وثِيابه حتَّى فَهِمَ حقيقةَ الأمرِ . . والآنَ ... ماذا يستطيعُ أنْ يفعلَ ؟ ! لقدْ فقدَ قِدْرَيْنِ منْ عَسلِ النَّحْلِ ، ومنَ المؤكَّدِ أنَّ أخاهُ الكبيرَ وزوجتَهُ سَيُعاقِبانِه ، ولكنْ . . ما هذا المكانُ ؟ اللهُ وَحْدهُ يعْلمُ . . قالَ فى نفْسِه : إذَنْ فلأُسْرعْ بمغادرةِ

هذا المكانِ ، ولْأَرْجعْ إلى البيْتِ ، وأُخْبِرْ أخى الكبيرَ وزَوْجتهُ . . .

إنَّهما رديئانِ حقًّا ، ولكنَّ الحياةَ معهُما أفضلُ من الحياةِ بيْن هؤلاءِ القُرُودِ . . . !

ولكنْ . . هلْ يُصَدِّقانِ قِصَّتى ؟ !

إنَّ ما حَدثَ عجيبٌ منْ غيْرِ شكٍّ ، ولَنْ يُصدِّقا حرْفًا مِمَّا أقول ... يجبُ أنْ آخُذَ معِى شيئًا يَكُونُ دليلاً على صِدقِ قوْلى !

ونظرَ الأخ الصغيرُ حوْلهُ ، فرأى خمْسَ مَباخِرَ على مِنْضدة حَجريَّةٍ ، فأخَذ واحدةً منْها ، وخبَّأها فى ثيابِهِ ، وانْسَلَّ خارجًا منَ الكهْفِ .

٢

أَقْبلَ اللَّيْـلُ ولكنَّ الأخَ الصغيرَ لم يَعُدْ ، وكانَ الأخُ الكبيرُ وزَوْجتهُ يَنْتظِرانِ فى قلق ، وبلَغَ بهِما الغضبُ مبلغاً شديدًا . . لقدْ ظنَّا أنَّهُ قدْ فرَّ ومعهُ العسلُ ، وبعْدَ مُنْتصفِ الليلِ عادَ الأخُ الصغيرُ ، وتقدَّمَ منْهُ أخُوهُ الكبيرُ يُرِيدُ أنْ يضْرِبه ، ولكنَّ الصغِيرَ صاحَ :

لا تضْرِبْنى . . . ! لا تضْرِبْنى . . . !

ثمَّ أخبرَهُما بما حدثَ ، وتوسَّلَ إلى أخيهِ أنْ يَصْفَحَ عَنْهُ . ولكنَّ الأخَ الكبيرَ كانَ لا يزالُ يعْتقِدُ أنَّ أخاهُ قدْ باعَ العسلَ ، واسْتوْلَى على ثمنِه ، ولكنَّهُ يريدُ أنْ يخْدعهُ . ولمّا رأى الأخُ الصغيرُ أنَّ أخاهُ لا يُصدِّقهُ

أخرجَ المبْخرةَ ليُبرْهنَ بها على صِدْقِ ما يَقُولُ !

أخَذَ الأخُ الكبيرُ المبْخرةَ فوَجدَها ثقيلةً جدًّا ، فتناولَ قطعةَ قماشٍ وأخذَ يمْسحُ عنْها الغُبارَ . . .

آه . . إنَّها صفْراءُ لامعةٌ . . ! إنَّها مِبْخرةٌ ذهبيَّةٌ !

لم يَعُدِ الأخُ الكبيرُ وزوْجته غاضِبيْنِ . . . لا . . . لقدْ غضِبا مرَّةً أُخْرى . . . إنَّهُما يَسُبَّانِ الأخَ الصغيرَ ، ويتَّهِمانهِ بالغباءِ . . . لماذا لمْ يأخُذ المباخِرَ الخمْسَ الذَّهبيَّةَ جميعاً ؟! وأصَرَّا على أنْ يعُودَ الأخُ الصغيرُ إلى كهفِ القُرُودِ مرَّةً أُخْرَى . . . ولكنَّهُ رفضَ . . . عِنْدئِذٍ قالَ الأخُ الكبيرُ :

إذا لمْ تذْهبْ فسأذْهبُ أنا . . .

وفى اليوْمِ التَّالى حملَ الأخُ الكبيرُ حِمْلًا منَ العسلِ وذهبَ إلى الجبَلِ ، ثمَّ صبَّ العسلَ على جسدِه كلِّه ،



وألقى القرود بالأخ الكبير من أعلى الجبل

وألقى بنفسه على الأرض متظاهراً بالإغماء . . . ولم يمض وقت طويل حتى جاء قرد صغير ، فصاح :

إن الصنم السكري قد جاء مرة أخرى ! إن الصنم السكري قد جاء مرة أخرى !

شعر الأخ الكبير بسرور عظيم ، وفى لحظات اندفع إلى هذا المكان عدد كبير جداً من القرود ، وأخذوا يلعقون جسد الأخ الكبير ، ثم حملوه وساروا نحو الكهف .

حسناً . . . لقد نجحت الخطة مرة أخرى . . . وظن الأخ الكبير أن المباخر الذهبية الأربع قد أصبحت فى قبضة يده . . . ولكنه لم يكن يتوقع أنه عند ما يحمل إلى الكهف سيأمر ملك القرود بشد وثاقه ويسبه :

أيها المحتال ! . . . لقد ظننتك شخصاً طيباً ! . . .

لم أكُنْ أعرِفُ أنَّ ظاهِرَكَ حُلوٌ وباطِنَكَ سُمٌّ ! أمس سَرَقْتَ مِبْخَرتى الذَّهبيّةَ ، واليومَ تجىءُ مرّةً أُخْرى ؟!

ثمَّ أمرَ الملكُ القُرودَ أنْ تعضَّهُ دُونَ شفقةٍ ، وأقبلَ القُرودُ جميعاً يعضّونَ هذا المحتالَ الشَّرِهَ ، وامتلأَ جسدُه بالجُروحِ ، وأخيرًا دفعُوهُ خارجَ الكهْفِ ، وألقَوْا بهِ من أعْلى الجبَلِ !

أصبحَ الأخُ الكبيرُ الشَّرِهُ القاسى القلْبِ بينَ الحياةِ والموْتِ . . . كانَ يشعُرُ بالألمِ الشَّديدِ يدبُّ فى جميعِ أجْزاءِ جسدِه ، حتَّى لا يستطيعُ الوُقوفَ ، وأخذَ يزحَفُ على الأرضِ ، ولكنْ لم يَكُنْ منَ السَّهْلِ عليْهِ أنْ يعودَ إلى بيْتِه زاحِفاً . . .

جسر جانفو

١

كان جانْفُو عِمْلاقاً قويًّا كالْمارِدِ ، وَكان يَعيشُ فى قَرْيَةِ « خُوانْ لِى » ، ولم يَكنْ لِجانْفو مِن الأقاربِ غيرُ زوْجتِه آلِى .

كانَتْ قُوَّةُ جانفُو خارِقَةً لِلْعادةِ ، وكان يَسْتطيعُ أن يحملَ عِدَّةَ قناطيرَ مرَّةً واحِدة ، كما كان يستطيعُ أنْ يَعبُرَ بسُهولةٍ أىَّ مَجْرًى أوْ قناةٍ فى الجبلِ .

وَيُقالُ إنَّ جانفُو كان فى أوَّلِ أمْرِه صَغيرَ الحجْمِ كالْقِردِ ، وَلم يَكنْ يستَطيعُ أن يَحملَ أكثرَ مِن ثلاثينَ رِطْلًا ، وكانَ يَشْعرُ بالتَّعبِ إذا سارَ مَسافَةً قصيرةً .

وفى إحْدَى السَّنَواتِ أصابَ النَّاسَ قَحْطٌ شَديدٌ ، وكانَ الحَرُّ لافِحًا ، وتَشَقَّقَت الأرْضُ لِشِدَّةِ الحَرارةِ ، وَاتَّسعت الشُّقوقُ المُتناثِرةُ فى كلِّ مَكانٍ ، حتَّى لَيبلغُ اتِّساعُ الشَّقِّ قدمًا كاملة ؛ أمَّا الزُّروعُ فقدْ ذوَتْ جميعًا وذَبُلتْ ، وأماتَها الحَرُّ الشَّديدُ اللَّافِحُ .

وعِنْدَما رأى جانفو هٰذا جَمعَ أهلَ القرْيةِ ، ودَعاهُم إلى بناءِ سَدٍّ قَريبٍ مِنَ الحُقولِ ، ولٰكنَّ مَجْرَى النهْرِ كان عَميقًا ، وانحِدارُه كان شَديدًا ، فكان الماءُ يَنْدفِعُ بقُوَّةٍ ، وكلَّما وَضعَ أهْلُ القرْيةِ حَجرًا جرَفَه التَّيَّارُ ... وهٰكذا ظَلُّوا يَعْملون عِدَّةَ أيّامٍ دُونَ جدْوَى .

وَفى لَيْلةٍ مُقْمِرةٍ كان جانفُو يَجلِسُ وَحِيدًا على شاطِئ النَّهْرِ ، وكانَ يُحَملقُ فى الماءِ بحُزْنٍ ويَقولُ لِنفْسِه : إذا لمْ نَسْتطِعْ أنْ نَبنىَ سَدًّا نَحجِزُ بِه الماءَ قَريبًا منْ حُقولنا ،

فإنَّ النَّاسَ سَيُضْطَرُّون لِأَكْلِ الحَشائِشِ وجُذورِ الأشْجارِ !

وَتابَعَ حَديثَه وهوَ يَنظرُ إلى الجبَلِ المُجاوِرِ لِلنَّهرِ : لَيْتَنى كنْتُ قويًّا ، حتَّى أستَطيعَ أن أنقُلَ الحِجارةَ مِنَ الجبلِ وأضَعَها فى النهْرِ ، لِأَحْجِزَ بها الماءَ ! ألا يكونُ هٰذا رائعًا ؟!

وَفجْأَةً اقتَربتْ سَمكةٌ كَبيرةٌ من الشاطِئ ، وَقفَزَتْ مِن الماءِ إلَى الأرْضِ ، ونظَرَ جانفُو فإذا هٰذِه السَّمكةُ تَنقَلِبُ رَجُلًا هَرِمًا ذا شَعْرٍ أبْيضَ ، وقدْ أمْسكَ بيَده جِذْرًا مِن جُذورِ اللُّوتس .

قال الرَّجلُ لِجانفُو :

أيُّها الرَّجلُ الصَّغيرُ الطَّيِّبُ القلبِ ! كُلْ هٰذا الجذْرَ كلَّهُ ... وسيَجْعلُكَ رَجلًا قويًّا !

أخَذ جانفُو الجذْرَ ، وفى لَحَظاتٍ كان قد الْتهَمه ، وَشَعرَ بِحَرارةٍ فى جَسَدِه ، وبَدأتْ عِظامُه تُقرْقِعُ ، وفى لَمْحَةٍ

أَصبحتْ يداهُ كَبيرتينِ ، وَكتِفاه عَريضتَيْنِ ، واسْتوَى صَدْرُه ، وَانقلَبَ جانفو عِمْلاقًا قويًّا .

وَالْتفتَ جانفو لِيرَى الرَّجلَ ، ولٰكنَّه كان قد اختفَى ، وَأحسَّ جانفو برَشاشِ الماء يُصِيبُ وَجْهَه ، فقدْ كانتْ هُناكَ سمكةٌ كبيرةٌ تَسْبَحُ قريبًا منَ الشاطِئ .

* * *

كان القمرُ بَدْرًا ، وَانتهزَ جانفو هٰذِه الفُرْصةَ ، فسارَ في ضَوْءِ القمرِ ، وذهبَ إلَى الجبلِ ، وعادَ إلى النهرِ يحملُ قطعةً كَبيرةً منَ الحَجَرِ ، ثم عادَ إلى الجبلِ وجاءَ بقطعةٍ أُخرَى ، وهٰكذا ... وظلَّ جانفو فترةً طَويلةً يحْملُ الحِجارةَ مِن الجَبلِ إلى النهْرِ ، حتَّى كدَّسَ كثيرًا مِن الحِجارةِ في مَجْرَى النهرِ ، ولم يَسْتَطعِ التيَّارُ أنْ يجْرِفَ هٰذِه الحِجارةَ بعدَ ذلِك .

٢

دُهِشتْ آلِي عِندَما تأخرَ زَوجُها عَن العَوْدةِ حتَّى مُنتَصفِ اللَّيْلِ ، فخرجتْ إلى شاطِئِ النهرِ لِتبحثَ عنهُ ، وهُناكَ رأَتْ رجُلًا عِملاقًا يَضعُ الأحْجارَ الضَّخْمةَ في مَجْرَى النهرِ ، فقالتْ له :

أيُّها الأخُ الكَبيرُ ! هَل رأيْتَ زَوْجِي جانفُو ؟

ضَحِكَ العِملاقُ بصَوْتٍ عالٍ قائلاً :

آلِي . . . ! أنا جانفو . . .

ثمَّ أخبرَها بالقِصَّة ، فغمرَتها السَّعادةُ ، ورَقَصَت طَربًا ، وأخذتْ تُساعِدُ زَوجَها في نَقلِ الحِجارةِ وبناءِ السَّدِّ .

عَمِلَ الزَّوجُ والزَّوْجَةُ مَعًا ، وهُما يُحِسَّان بكثيرٍ مِنَ السَّعادةِ ، وعِنْدَما طَلَعَ الصُّبْحُ كان نِصفُ السَّدِّ قدْ تَمَّ ،

وَرأى أهلُ القَرْيةِ هٰذا ، فأقْبلوا لِيساعِدوا جانفو فى عَمَلِه ، وَلِينقُلوا إليهِ الرِّمالَ وَالطِّينَ .

وكانَتْ أهازيجُ الفرَحِ وَالسُّرورِ المُنْبَعِثةُ منهمْ تَسْرِى فى النَّهرِ .

وفى يَوْمٍ واحِدٍ تمَّ بِناءُ سَدٍّ عَظيمٍ .

وَانْدَفَعَ الماءُ إلى الحُقولِ ، وعادت الحياةُ إلى الأرْضِ ، وَهلَّل الناسُ فى حَماسَةٍ ، ورَجَّعَ الجَبلُ تَهْليلَهم .

٣

بعدَ عامَينِ مِنْ بناءِ السَّدِّ هَطلَت الأمْطارُ غَزيرةً مُدَّةَ شَهْرَينِ ، ففاضَ النهرُ ، وتَحوَّلَت الحُقولُ بُحيراتٍ صَغيرةً بلَوْنِ الطِّينِ ، واندفَعت الأمْواجُ الصَّفراءُ المُتَلاطِمَةُ كقَطيعٍ منَ البقرِ نحْوَ قَرْيةِ « خُوانْ لى » .

خرج جانفو وزوجتُه وغيرُهما مِن شَبابِ القَرْيةِ ، وهمْ يَحْملون الأطْفالَ والعَجائزَ وَما استَطاعوا حَمْلَه مِنْ صَناديقَ أوْ سِلالٍ ، فارِّينَ مِن هٰذا الفَيضانِ لِيَحْتَمُوا بجَبَلِ « لِيانْ وُو » القَريبِ منَ القَرْيةِ .

كادَ النَّهارُ يَنْتَهِى ، والرَّعْدُ ما زالَ يَقْصِفُ ، والرِّياحُ ما زالتْ تَعْصِفُ ، والمَطرُ ما زال يَنهمِرُ وكأنَّهُ لا نِهايَةَ لانْهمارِه ، والأمْواجُ الصفْراءُ تَتَدافَعُ وَراءَ النَّاسِ فى اتِّجاهِ

الجَبلِ، وأخذ الناسُ يَبْكون ويَصرُخون، وقد احْمرَّتْ عُيونُهم، وتَشَعَّثتْ شُعورُهم، وهم يَجْرُون نحوَ الجبل.

وعِنْدَما اقتربُوا منَ الجبلِ اعْترضتْ طريقَهمْ قَناةُ «ليانْ وُو» العَميقةُ الطَّويلة، ولٰكنَّهمْ وَجدوا الفَيضَانَ قدْ جرَفَ الجسرَ المُقامَ على هٰذهِ القَناةِ، وهٰكذا وَقعوا بينَ خطرَينِ: القناةِ العَميقةِ أمامَهمْ، والأمْواجِ المُتلاطِمةِ مِن وَرائِهمْ، وتَردَّدتْ بينَ الجُمُوعِ المُتدافِعةِ صَيحاتُ اليأسِ.

كانَ اتِّساعُ هٰذهِ القناةِ خَمسَ أقدامٍ تقريباً، واستَطاعَ الرِّجالُ الأقْوياءُ أنْ يَعبُروها قفْزًا، أمَّا الشُّيوخُ والنِّساءُ والأطفالُ فقدْ أخذوا يَصْرُخون في يأسٍ، وحاوَلَ بَعضُ النِّساءِ والشُّيوخِ القفزَ لِيَنْجُوا بأنْفسِهمْ، ولٰكنَّهم سَقطوا في القناةِ، وجرَفهُمُ التَّيَّارُ إلى النهرِ الكبيرِ.

ولمْ تكُنْ هُناكَ ألْواحٌ خَشَبيَّةٌ أوْ أشْجارٌ قريبةٌ يُمكنُ أن تُستَخْدَمَ في عُبورِ القناةِ وانْتظرَ النَّاسُ أن تَبتلعَهُمُ الأمْواجُ ! !

اللَّيلُ يَقترِبُ شَيئًا فشيئًا . . .

وفَجأةً صَرخَ أحَدُ الرِّجالِ الذينَ عَبرُوا القناةَ بأعْلَى صَوْتِه:

الجِسْرُ مُمدٌّ ! تَعالَوْا جَميعًا لتَعْبُرُوا القناةَ !

ثُمَّ سُمِعَ صَوتُ اصْطِدامِ جِسمٍ بالأرْضِ.

وحاولَ النَّاسُ أن يُثبِّتُوا أبْصارَهم على الجِسْرِ في الظَّلام، ورَأوْا أمامَهمْ عَمودًا يَصِلُ بينَ ضِفَّتَي القناةِ، وأسرعَ الشيوخُ والنِّساءُ والأطفالُ إلى عُبورِ الجِسْرِ وهم يَرْتَجِفون.

كانَ الماءُ يَرتفِعُ شيئًا فشيئًا، واندَفعتِ الأمواجُ

الصَّفراءِ نحْوَ الجبلِ ، وأَخَذ النَّاسُ يتحسَّسون طَريقَهمْ فى الظَّلام ، وانتشَرُوا جَماعاتٍ يحتَمُونَ بِصُخورِ الجبلِ ، ولمْ يَكُنْ يُسْمَعُ غيرُ تنهُّدَاتِهم ، وهمْ يُفكِّرُون فى حُقولِهِمْ وَمساكِنهم وأَمْتعتِهم وأَقواتِهم . . . !

٤

أَسْفَرَ الصُّبْحُ ، وظَهرَتْ الشمسُ حَمْراءَ مِن ناحيةِ المشرِقِ ، وبَدَأَ الماءُ يَنخفِضُ شيئًا فشيئًا ، وفجأَةً سُمِعَ صَوْتُ امرأَةٍ تَصِيحُ : جانقُو ! جانقُو !

ورفعَ النَّاسُ رُءوسَهُمْ فإذا هِيَ آلِي زَوْجةُ جانقُو ، وكانتْ تجْرِى فى كلِّ اتجاهٍ باحِثَةً عن زَوْجِها .

كانتْ آلِى قدِ افْتَقَدَتْ زَوْجَها فى اللَّيلةِ الماضيةِ ، وظَنَّتْ أنه بينَ إحْدَى الجماعاتِ المتناثِرةِ ، فظَلَّتْ ساكِتةً ، وعِنْدَ ما طَلَعَ الصُّبحُ نظرَتْ فى كلِّ مكانٍ ، ولكنها لَمْ تَجِدْ زَوْجَها ، فشَعرَتْ بالاضطرابِ . . . أَيكونُ التيَّارُ قَدْ جرَفَه ؟ !

اضطرَبَ النَّاسُ جميعًا عِندَ ما عَلِموا أنَّ جانقُو الرَّجُلَ

الطَّيِّبَ القَلْبِ قَدِ اُخْتفَى ، وصاحَبَ آلِى عِدَّةُ رِجالٍ للْبَحْثِ عَنْ جانْفُو فى الطَّرِيقِ الذى أقبَلوا مِنْه ، وفى الطَّرِيقِ كانوا يَصِيحونَ بِصَوْتٍ عالٍ :

جانْفُو ! جانْفُو !

ولـكِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ مَنْ يُجِيبُ النِّداءَ .

* * *

بَعْدَ مُنْتَصَفِ النَّهارِ كانَ الفَيَضَانُ قَدْ تَراجَعَ ، وظَهَرَتْ قَناةُ « لِيانْ وُو » مَرَّةً أُخْرى للأَعْيُنِ ، وكانَ هُناكَ عِدَّةُ رِجالٍ يحَاوِلونَ عُبورَ الْجِسْرِ للبَحْثِ عَنْ جانفُو ، وبَغْتَةً صاحُوا جَمِيعاً فى دَهْشَةٍ عِنْدَ ما رَأَوُا الْجِسرَ الْحَجَرِىَّ الطَّوِيلَ ، الذى يَصِلُ بينَ ضِفَّتَى القَنَاةِ ، يُشْبِهُ جانفُو إلى حَدٍّ كبيرٍ .

اُقتَرَبتْ آلِى . . . يا لله ! . . . إنَّه حَقًّا جانفُو ، ولـكنه

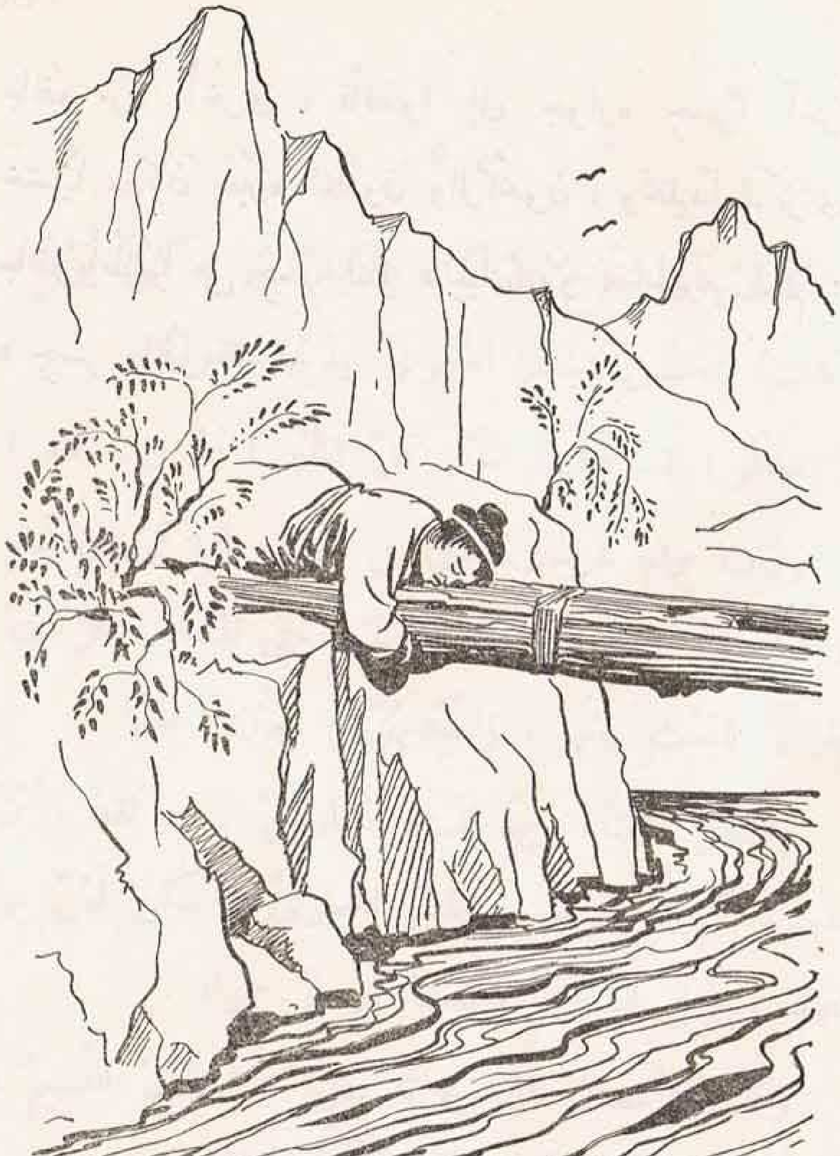
أصْبحَ قِطعةً طويلةً مِن الْحَجَرِ !

ولَمْ تستطِعْ قَدَما آلِى أنْ تحمِلاها ، وألْقتْ بنفْسِها على الْحَجرِ الـكبيرِ ، وأخَذتْ تبكى وتتأوَّهُ ، وقلبُها يتقطَّعُ حُزْنًا .

الآنَ وَضحتِ الحقيقةُ للنَّاس ، وعَرَفوا أنَّ جانفُو قدْ جَعلَ مِن نفْسِه فى اللَّيْلةِ الماضيةِ جِسْرًا على القَناةِ ، حتى يُنْقِذَ الصِّغارَ والنِّساءَ والشُّيوخَ ، وطالتِ المدةُ التى حاوَلَ فيها أنْ يُبْقِىَ جَسَدَهُ مُنتصِباً ، فتَصلَّبَ جسدُه ، ثمَّ اُندفَعَ المـاءُ بعدَ ذلكَ وغَطَّى جانفُو ، ونَفذَ المـاءُ إلى جميعِ أجزاءِ جِسمِه ، وهكذا تحوَّلَ حَجرًا فى نِهايةِ الأمْرِ .

* * *

رَأَى القَرَوِيُّونَ جميعاً أنَّ جانفُو اُختارَ لنفْسِه هـذا المصيرَ ليُنقِذَ الآخرين ، فانهمرَتْ دُموعُهمْ أَسَفاً وحُزْنًا .


وألقت آلى بنفسها على الحجر الكبير ، وأخذت تبكى

وقالتْ آلِى لنفسِها : « لقدْ فعَلَ زَوْجى شيئًا رائعًا ، وهذا شرَفٌ عظيمٌ لِى ! » ثُمَّ جففَتْ دُموعَها ، وأخذتْ تتحسَّسُ الْحجرَ فى حَنانٍ ، وقالتْ تخاطبُه :

جانفُو ! لقدْ فعلْتَ الْخَيْرَ كلَّ الْخَيْرِ ! نَمْ فى سَلامٍ ! سآتى كلَّ يَوْمٍ لِأَراكَ !

* * *

أنحسَرَ المــاءُ عَنِ القريةِ كلِّها ، وساعَدَ القَرَوِيُّونَ عجائزَهُمْ ، وحَملوا أطفالَهم وسِلالَهم وصناديقَهم ، وَساروا عائدينَ إلى القرْيةِ مِنْ جديدٍ ، وعندَ ما بلَغوا قناةَ « لِيأَن وُو » رأَوْا جانفُو جامِدًا مُستقيمًا عَبْرَ القناةِ ، وأنهمَرتْ دُموعُهم وهُمْ يُرددون : جانفُو أيُّهــا الشابُّ الشُّجاعُ ! لقدْ أنقذْتَ حياةَ الـكثيرين !

ولَمْ تُطاوِعْهم نُفُوسُهُمْ أنْ يَطئوا بأقدامِهم جَسدَ

جانفو مَرَّةً أُخْرى ، فأقامُوا إلى جِوارِه جِسرًا آخَرَ خَشبيًا ، كانَ يَعبُرُه الغادُونَ والرّائحون ، وتخليدًا لذكرى جانفُو أَطْلقُوا على جِسْرِ قناةِ « لِيانْ وُو » الجديدِ اسمَ :

« جِسْر جانفو » .

٥

كانتْ آلي تخْرُجُ إلى قناةِ « لِيانْ وُو » كلَّ يَوْمٍ ، وكانتْ تتحَسَّسُ الجِسْرَ الحجرىَّ بيدَيْها وتقولُ :

جانْفُو ! لقدْ فعلْتَ الْخَيْرَ كلَّ الخيْرِ ! نَمْ فى سَلامٍ !

وذاتَ يومٍ خَرجَتْ آلِي فى الصَّباح الباكِرِ إلى قناةِ « لِيانْ وُو » ، ولَم تعُدْ إلى بيْتِها حتى المَساء ، فخرجَتْ جاراتُها للبحْثِ عنْها ، ولـكنَّهُنَّ لم يَعْثُرْنَ عليْها .

ولـكنَّ شَيْئًا غريبًا لَفَتَ أنظارَهُنَّ . . . لقدْ رأَيْنَ شَجَرةً كبيرةً إلى جِوارِ الجِسْرِ الحجَرىِّ لم يَكُنْ لَهُنَّ بها عَهْد ، وعَلَى الشَّجرَةِ أَيْنعتْ أَزْهارٌ حمْراء .

وكانَتْ أَغْصانُ الشَّجرةِ تتراقَصُ كلَّما هَبَّ النَّسِيمُ ، فتُحْدِثُ صَوْتًا رَقيقًا هادِئًا ، كأنَّها تقُولُ :

جانْفُو ! لقَدْ فعلْتَ الخيْرَ كلَّ الخيْرِ ! نَمْ فى سَلامٍ !

كانتْ هذه الشَّجرةُ منْ أشْجَارِ قطْنِ المُومْيا — وَهُوَ نوْعٌ منَ الشَّجَرِ ذُو زَهْرٍ أحْمَرَ يُشْبِه (ذقْن الباشا) المعْرُوفَ فى مِصْرَ .

وعندما يأتى الصَّيْفُ كانَ وَرَقُها يَتَـكاثرُ لِتُظِلَّ جانْفُو ، كأنَّها تَخْشَى أنْ تَسْقُطَ عليْه أشِعَّةُ الشَّمسِ المحْرِقة .

وَعِندما يأتى الخَرِيفُ كانتْ تُثمِرُ قُطْنًا وتَنْثرُهُ على جانفُو ، كأنّها تخشى عليْه رِياحَ الخَرِيفِ البارِدَة .

وعِندما يأتى الشِّتاء كانتْ تُسقِطُ وَرَقَها لتُغطِّيَ به جانفُو ، كأنَّها تخشى ألَّا تصِلَ إليْه أشِعةُ الشَّمْسِ الدَّافِئةُ .

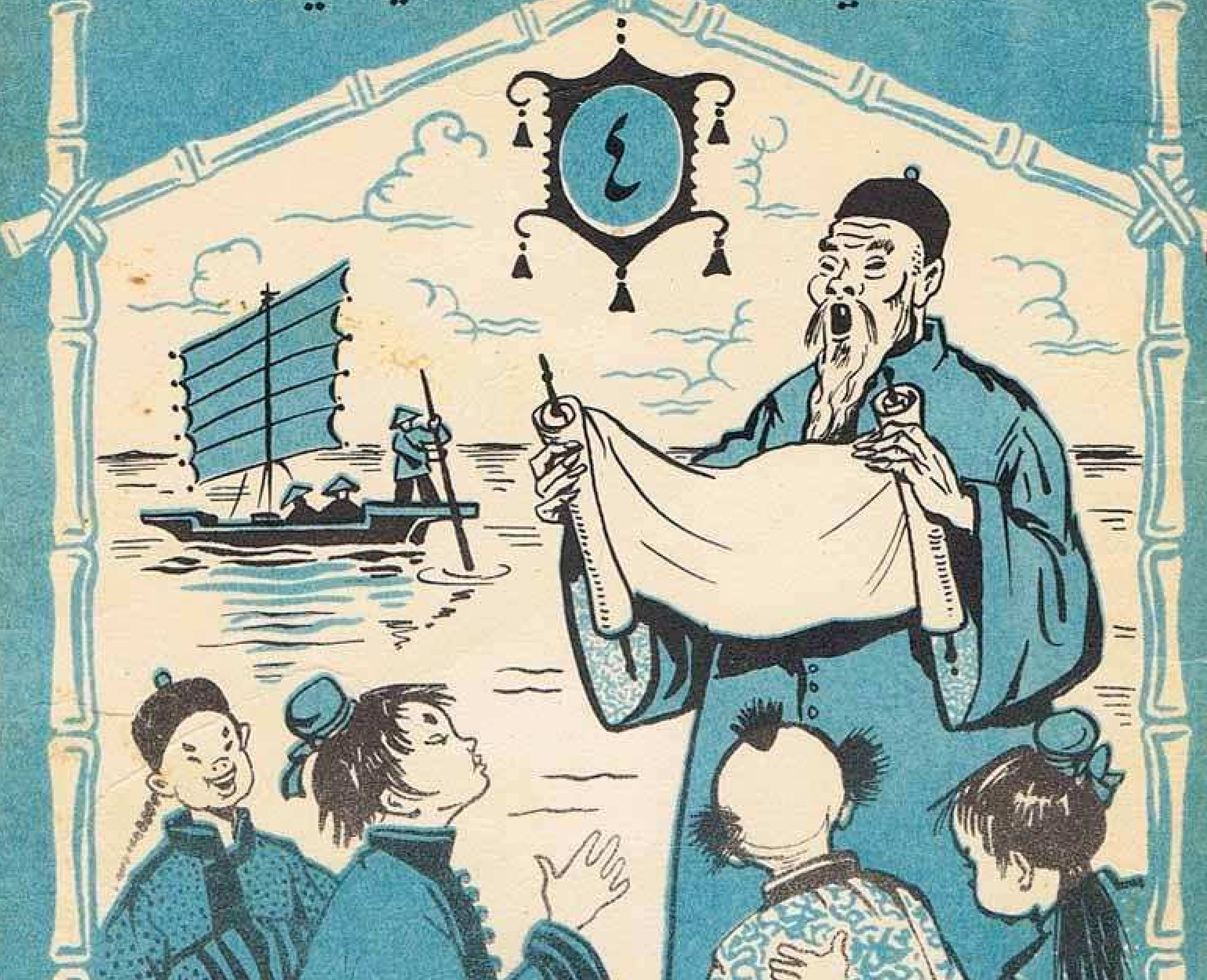
وَعِنْدما تتفتَّحُ أزْهارُ القطْنِ الحمراء ، كانَ الرُّعَاةُ الصِّغارُ يجلِسونَ تحتَ هذه الشَّجرَةِ ، وبعْضُهمْ يَزْمِرُ

بنايِه ، وبعْضُهُمْ يُغَنِّى ، وَكانُوا جميعًا يُرَدِّدُونَ هـذه الأُغْنِيَةَ :

شَجَرَة القُطْنِ الجميلة ...
أزْهَرت زُهُورًا حمراء ساحِرَةً ...
وعبْرَ قناةِ لِيانْ وُو ...
يرْقُدُ الجِسْرُ الحجَرِىُّ ...
إنهُ جانفو الرَّجُلُ ...
إنهُ طيِّبٌ رحيمُ القلْبِ ....
ولَنْ ننسى أبدا شَجَاعَتَهُ !!

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٠

حكايات صينية



الصنم السكري

دار المعارف بمصر